

الميكانيزمات الأنثروبولوجية والسوسيو-نفسية لتكريس الإحتقار والمهانة

وتعزيز التسلط والسيطرة على الآخر

بحث في ممارسات الإنسان الأوروبي الكولونيالي ضد الإنسان الجزائري

محمد بوعبدالله، جامعة حسينية بن بوعلي، الشلف، الجزائر

ملخص

على ضوء دراسات ما بعد الاستعمار واجتهادات مفكري هذا التيار من أمثال فرانز فانون، ألبر ميمي، إيمي سيزير، إدوارد سعيد، هومي بابه، وسبيفاك غاياتري؛ مستهدفين بذلك تفكيك الخطاب الاستعماري، فهم ثنائية الأنا والآخر، ودراسة التابع ضحية الممارسات الاستعمارية؛ جاءت دراستنا هذه نبتغي من خلالها تفكيك وتشريح لبعض آليات التسلط والهيمنة الممارسة من قبل الإنسان الكولونيالي وخطابه الاستعماري، هذا الاستعمار الذي يُعبّر عنه الباحث رامي أبو شهاب بـ "المخالطة والرييس" وهو عنوان كتابه ضمن دراسات ما بعد استعمار، ليعالج فيه الممارسات الاستعمارية وما يحيط بها من توصيف؛ حيث تتجاوز كلمة المخالطة دلالات المخادعة بمعناها المباشر إلى فعل المراوغة والمغالطة، في حين يحيل لفظ الرييس إلى دلالات متعددة من قبيل: أول الحمى، العشق، وبقية الشيء وأثره، كتعبير عن سمة ذلك الاستعمار وتداعياته على تلك المجتمعات.

ويحيلنا هذا إلى مفهوم النيوكولونيالية الذي صاغه الرئيس الأول لغانا المستقلة كوامي نكروما والذي يعني تحول الاستعمار الكلاسيكي إلى استعمار آخر أكثر ذكاء ودهاء وأبرع في التخفي والإندساس بحث يصعب الكشف عنه ومقاومته، وهذا ما جعل رواد ما بعد الاستعمار وبعض المفكرين المجتهدين ضمن هذه النظرية من أمثال حسن حنفي يدعو إلى إستشراق مضاد أو ممارسة علم الإستغراب الذي يستهدف تفكيك الثقافة الغربية تشريحا وتركيبا، لتقويض خطاب التمرکز، وفضح مقصدية الهيمنة والتسلط.

كلمات مفتاحية: الخطاب الاستعماري، آليات التسلط، الهيمنة، الكولونيالية، النيوكولونيالية

Abstract

Our studies aim at contributing to the dismantling of the colonial discourse, through searching in that colonial mechanisms, doings and practices done by colonists against the pure inhabitants of the land in order to dominate them. These mechanisms and practices are considered by specialists among the most serious psychological traumas. We mention here the case of the thinker frantz fanon who studies the french colonialism is the most serious psychological trumas owing to the severe cases of illnesses such as nerves, constant stress and tiredness. This attitude is supported by the french thinker john paul sartre in his introduction to frantz fanon book entitled « the tortured in the earth » in which he says : « french was a name of a country but now it has become synonymous with nervousness », the importance of this study is to help in understanding that psychological and socio-disorders experienced by the post-colonial society on the one hand, and the awareness of the characteristics of colonialism and its dangerous colonial mechanisms, which are more subtle and more harmful as described by kwame nkrumah on the other hand.

Keywords : dominance, colonialism, new-colonialism, colonial mechanisms.

مقدمة:

يستخدم المستوطنون الأوروبيون بالجزائر إبان المرحلة الكولونiale العديد من الميكانيزمات والآليات العنصرية والإحتقارية المستمدة من مختلف الحقول الاجتماعية والنظريات الأنثروبولوجية منها، السوسيولوجية والنفسية؛ حيث يمتلك الأوروبيون والفرنسيون العديد من الأعلام المتمرسين في هذا الميدان لتعزيز الإحتقار وغرس الدونية لدى الإنسان الجزائري الأهلي، وجعله يقتنع بماته الأفكار البعيدة عن الروح الإنسانية والأخلاق الكونية كما يدعو إليها العلامة الكندي تشارلز تابلور، والفيلسوفة الألمانية سيلا بن حبيب، أو توفير حياة الرفاه كما يوردها زيغمونت باومان في كتابه الحياة السائلة، التي تتطلب حسب العادلة التوزيعية وهو نفس ما تدعو إلية نانسي فريزر، وإنما ممارسات الإنسان الكولونيالي والأوروبي في الجزائر يعبر عنها بشكل حلي كتاب 'مجتمع الإحتقار' (La société mépris) لأكسل هونيث المدير الحالي لمعهد العلوم الاجتماعية أو ما يسمى بمدرسة فرانكفورت الذي يُعري ممارسات الجور الاجتماعي من إنكار، إزدراء، مهانة، لإعتراف، إقصاء، تهميش، وممارسة حالات اللامرئية والإماتة النفسية.

وهذا ما يؤكده المفكر التونسي ألبير ميمي (Albert Memmi) عندما يتطرق إلى مفهوم العنصرية وصورها لدى الإستدمازي-المستعمر - فيرى أن الإستدمازي يعتمد على البعد السوسيولوجي بالوشم البيولوجي أو الميتافيزيقي معتبرا إياه المحرك الجوهرى للمستعمر (ميمي، 75، 2007)؛ والتي يسميها الأستاذ مصطفى الأشرف* بالنظرية النقيض (Antithèse) التي إرتكز عليها الإستعمارىون في تبرير سلوكياتهم العنصرية والإحتقارية ونشر الدونية وهذا ما سنفصل فيه عندما نتطرق لبعض وأهم الميكانيزمات السوسيولوجية المستخدمة من طرف المستوطنين لتكريس السيطرة والمهانة والإلإعتراف وممارسة اللامرئية (L'invisible) اتجاه الإنسان الجزائري. مفهوما السوسيولوجي والنفسى، ولكن لأبأس قبل ذلك ننظر في بعض من ملامح بناء الذهنية الكولونiale لدى الإنسان الأروبي بالجزائر، لنتحرى عن أهم مرتكزاتها وعناصرها.

أولا: أهمية الإحتقار والعنصرية في بناء ذهنية الأقلية الأروبية.

تعتبر الثقافة الشعبية مدخل علمي مهم لفهم بناء ذهنية الأقلية الأوروبية فبداية دعنا نتطرق إلى أهمية تلك الإصدارات الأدبية كالقصص والحكايات والروايات في التحليل الاجتماعي وفي فهم ذهنية ونمط تفكير فئة ما من المجتمع، حيث تُعبّر اهتمامات الشخص وميوله عن ملامح ذهنية وبناء معين لشخصية هذا الإنسان.

فيعتبر رواد العلوم الاجتماعية هذا البناء جزءا وأساسا من أي معاملات، بدءا من العلاقات الشخصية كالصداقة إلى العلاقات العامة كمفاوضات العمل والعلاقات الدولية كالإتفاقيات التجارية أو شن الحروب، حيث يتفق كل من س. رايت ميلز (C. wright Mills) ومارفن سكوت (Marvin scott) وستانفورد ليمان (Stanford lyman) بأنها موقف لفظي لشرح سلوك يعتبر إنحرافي، فيما يعتبرها دفيد ماتزا (David Matza) بأن القصص والحكايات تستخدم لإدانة الآخرين، وإنكار المسؤولية عن الأمور السيئة وإلقائها على الآخرين (سكوت، 2009، 316)، وهذا بالضبط ما سنتناوله بالتحليل عندما نعالج تلك النعوت والأوصاف السيئة التي كانت تُرد في القصص الشعبية عند الأقلية الأوروبية بالجزائر حيث يغلب عليها التشبيه بالحيوانات وإلصاق الأوصاف المرتبطة بالتخلف والدونية والبدائية مثل: سال أراب، راتون،... وغيرها حيث يقول فيها أبو القاسم سعد الله بأنها تحتاج إلى معجم لكتابتها نظرا لكثرة هذه الألفاظ اللاأخلاقية.

وتشير مختلف السرديات في بعض الأحيان إلى التعبير عن وضعية علاقة إجتماعية بين ذاتية بين فئات المجتمع، وهذا ما تشير إليه باتريسيا تورنر (Patricia Turner) التي تطرقت إلى القصص التي كان ينشرها السود في أمريكا، والتي تعبّر عن قصص الإضطهاد التي يعانيها السود، وهي تعبّر كذلك عن قصص تأمرية لجماعة أو فئة ضد أخرى (سكوت، 2009، 320). وهذا ما سيتجلى لنا من خلال تناول الإصدارات الأدبية كروايات لاكاغايوس التي كانت تحقق رواجاً واسعاً لدى الأوروبيين بالجزائر:

أ-مكون الإحتقار في ذهنية المستوطنين: أما عن تناولنا للثقافة الشعبية للمستوطنين الأوروبيين فإنها حسب الأستاذ أبو القاسم سعد الله هي تعبير عن الحياة اليومية للإنسان الأوروبي مع الفرد الجزائري، فهي سلوك الإنسان مع الإنسان الذي أصبح في الواقع يعبر عن علاقة حيوان مع حيوان، وهذه الثقافة الشعبية للأقلية الأوروبية تعبّر عنها ما نشرته الصحف الكولونيالية وما بثته المسرحيات والنشريات والروايات التي يشرف عليها هؤلاء المستوطنون (سعدالله، 1997، 47)، والتي يُنظر إليها سوسيولوجيا على أنها مؤشر لفهم تكوين البنية الذهنية للأقلية الأوروبية ونوعية العلاقة والمعاملة التي تبديها نحو الجزائريين.

وهذا ما يوكده أبو القاسم سعد الله كون أن هذه الإصدارات الشعبية الرخيصة -وهي المسماة بروايات زوج سوردي- تعتبر مصدر مهم لفهم عقلية الأقدام السوداء، وتعطينا المفاتيح لنظرة داخلية مدهشة في الذهنية الجماعية للإنسان الأروبي الجزائري (سعد الله، 54، 1997).

ونعني بهذه الإصدارات بالخصوص سلسلة لاكاغايوس** (la cagayous) التي ظلت تصدر مدة ثلاثة عقود تقريبا من 1891-1920 في إصدارات أسبوعية في ستة عشرة صفحة، وكانت تستعمل اللهجة الشعبية للمستوطنين الحضريين والتي يطلق عليها باتاويت (Pataoite) وهي عامة فرنسية (Patois) طُعمت بعدد الألفاظ من اللغات الإسبانية والإيطالية والمالطية وكذا العربية (سعد الله، 51، 1997)، وكان بطل هذه الروايات الذي أخذ شخصيات عدة حسب كل عدد فإنه دائما ينتصر ويؤدب العربي واليهودي (سيفان، 06، 1991)؛ وهذا ما جعل الأروبيون بالجزائر يتغنون به مرددين: (nous sommes tous des cagayous) وهي تعني كلنا كاغايوس (سعد الله، 53، 1997)، وهذا معناه أننا كلنا أبطال نؤدب ونتنصر دائما ونسيطر على العربي.

وهذا بالإضافة إلى إصدارات أسبوعية أخرى مثل بابالويت (Papa louette) التي صدرت ثماني سنوات من (1906-1914)، ولوكوشون، لاكرافاش، لوديا بل أكاترا، لو كوكو ألجيريان، وكلها ظهرت بين 1898 و1912 (سعد الله، 54، 1997).

وهذه الإصدارات رغم اختلافها وتعددتها إلا أنها تتفق في كونها جاءت في قالب سخري، تهكمي، إستهزائي، إحتقاري،-تلك المفردات والتعابير التي وردت في صحف وروايات الأقدام السوداء لوصف الإنسان الجزائري هي مفردات وتعابير قد يتحرج بعض الجزائريين اليوم من نطقها حسب تعبير الأستاذ أبو القاسم سعد الله- حيث أن المفردات والتعابير التي إستخدمها المستوطنون في صحفهم ورواياتهم ومختلف إصداراتهم الأدبية والثقافية تعتبر تراث مهم للتحليل السوسيولوجي من أجل فتح أيقونة العقلية الأروبية والإطلاع عليها من أجل فهم بناء الذهنية الأروبية في الجزائر وكيفية تعاملهم مع الجزائريين للوصول لفهم مختلف السلوكيات الكولونيالية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ولهذا نجد علماء الأنثروبولوجيا يولون أهمية خاصة إلى النعوت التي إستخدمها الناس في حياتهم اليومية، حيث يرون أن اللازمات (labeles) ذات القوة الفاعلة تفقد بعض قوتها عندما تتغير من إستعمالها في الأسماء إلى النعوت، حيث

تضاف هنا خصائص تحديد الموضوع بطريقة أكثر دقة وصدق بإعتباره فرديا(سعدالله،60،1997)، فيستخدم "العربي" بدل "الشعب" حيث يتضمن نعت العربي عدة خصائص إحتقارية فمثلا حكاية عربية (أي قصة معقدة)، وشغل عربي (أي عمل غير متقن)، وكل شيء صنع على الطريقة العربية يكتسب بذلك معنى منحط ووحشي، متخلف، وغير جمالي(سعدالله،59،1997)؛ كما تحول اسم فاطمة إلى نعت وصفة أصبح يطلقه المستوطنون على النساء العربيات وهذا لأن اسم فاطمة تحول إلى مرادف قليلة الأدب...

ومن **اللازمات (labels)** العديدة والأكثر إنتشارا وإستعمالا من طرف المستوطنين والتي يقول فيها أبو القاسم سعد الله ألها تستحق أن نضع معجم خاص بهذه الألفاظ والتعابير والنعوت واللازمات الكثيرة ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر(سعدالله،73،1997):

- **كلمة العربي أو البيكو:** فالأجزاء المؤلفة لصورة البيكو في ذهنية الأقدام السوداء مكونة من خمسة لوازم رئيسية وهي أنه: وحشي، فقير، قدر، غشاش، وشهواني.

- **لازمة فقير أو مسكين:** والتي إرتبطت بها عدة ألفاظ وعبارات من اللهجة الباتاواتية مثل مزلوط (فقير، مسكين)، أو عبارة يعمل بطل (أي ليس له عمل).

- **لازمة قدر أو صال أراب:** أي العربي القدر وهنا نذكر كيف صوّر الشاعر السافر-بابا لويت- مدينة الجزائر حيث قال: "عرب خسيسون وكريهو الرائحة في قذارهم الأهلية... تصيب مدينة الجزائر بالعدوى، وها هو القمل يتحرك بحرية حيثما شاء في عربات الترام".

- كما تعلق بالجزائري لازمات مثل معدي (**infectien**)، السراق (أي السارق، اللص)، والخبيث، الشهواني بالإضافة إلى أنه إنسان خشن غير ظريف، وغير متأدب وهو بإختصار إنسان دون البشر وحيوان متوحش... وغيرها من الألفاظ والتعابير البذيئة والدنيئة.

ولهذا يختصر الأديب الجزائري مولود فرعون في "يومياته" ملامح وصورة الجزائر والأهلي في الذهنية الكولونيالية عندما يتساءل من هو الأهلي في أعين الأوروبي؟، «إنه عامل مشترك، خادمة منزل، مخلوق غير متجانس بطرق مثيرة للضحك، وعادات غريبة، ولغة مستحيلة»(سعدالله،64،1997).

فإذا كانت إصدارات كاغايوس قد حافظت على شعبيتها بين الطبقة الدنيا والتي كانت إصداراتها الأسبوعية سرعان ما يختطفها الناس من الأكشاك وتباع عن طريق البريد، فإن الطبقة التي توصف بالعليا (أتحفظ على هذا الوصف) فقد تفرزوا على لغتها السوقية (سعدالله، 1997، 51)، وهذا ما دفعنا للبحث عن صورة الجزائري في المخيلة الفرنسية لدى أدباؤها المرموقين والمعروفين.

فكانت الإصدارات الأدبية والثقافية الواسعة لدى الأدباء المعروفين بمستوى إنتاجهم، والتي تعد مادة إستهلاكية ثقافية للطبقة العليا سوءا للفرنسيين (في فرنسا) أو المستوطنين الأوروبيين في الجزائر، فوجدنا أن هذه الإصدارات الأدبية لم تختلف عن الإصدارات الأدبية للطبقة الدنيا فكلاهما صوّر الجزائري بالإنسان المتوحش أو الحيوان دون البشري، وبالكائن المتخلف الذي لا يمكنه أن يتعلم أو يتطور بحكم الدونية الحتمية والقصور البيولوجي المكون للإنسان الجزائري وعليه فهو في حاجة ملحة في إعتقادهم لمن يقوده ويطوّره ويخرجه من حالة القصور والتخلف والبدائية التي يعيشها.

وهذا ما يؤكده محمد الطيبي الذي يرى أن المدونة النصية للفكر والأدب الإستعماري تتجلى فيها ثنائية الهوية المتعاكسة والمتباعدة بين الصفات الجيدة والإيجابية التي يحملها المستعمر والصفات السيئة والسلبية التي تُمثل المستعمر، وهذا ما يبينه الجدول الآتي (الطيبي، 2009، 216):

صورة المُستعمر الفرنسي والأوروبي	صورة المُستعمر الجزائري
— جميل وأنيق ووسيم	— وسخ ورث وبشع
— فاهم ومتفهم ومتعلم	— أمي وجاهل
— ملاك وغني ومثابر	— فقير ومتشرد
— محب للعمل	— كسول وخامل
— إنساني ورؤوف	— متوحش وعنيف وفظ وبهيمة
— صاحب تاريخ ومدنية وحضارة	— بدائي لا تاريخ له ولا حضارة

- جدول يمثل صورة كل من المستعمر والمستعمَر في أدب الطبقة العليا الأوروبية وهكذا تكامل الثقافة الشعبية والإصدارات الأدبية لدى الطبقة الدنيا مع صورة المستعمر الجزائري والإنسان الأهلي في مخيلة وثقافة الطبقة العليا وإصداراتها الأدبية.

ب-مكون العنصرية في ذهنية المستوطنين: هنا نجد الكاتب اليهودي "ألبر ميمي" (Albert Memmi) يُورد في كتابه "صورة المستعمر" مفهوم العنصرية كإحدى أوجه ومكونات الإستعمار الأساسية عندما يصرح: "والعنصرية هكذا لا تبدو كتفصيل عرضي بعض الشيء، بل كعنصر متوحد في الجوهر مع الإستعمار، فهي التعبير الأفضل للفعل الكولونيالي" (ميمي، 78، 2007)؛ حيث أن العنصرية تختصر العلاقة الجوهرية التي تربط بين الإستعماري والأهلي، كما أن العنصرية الكولونيالية كمجموعة سلوكيات وردود أفعال مكتسبة تتكرر منذ الطفولة الأولى، فهي ثابتة ومُعززة بالتربية، وتنغرس عفويا في الحركات والكلمات حتى الأكثر بساطة (ميمي، 74، 2007).

كما كانت الأقلية الأوروبية بالجزائر مزيج من أجناس عدة فرنسيين، إيطاليين، إسبانيين ويهود وغيرهم يتباغضون ويتكاهنون ويحقد بعضهم على بعض ويتبادلون العنف والجريمة ليصل حد القتل، ونذكر أن اليهود كانوا من الأعراق التي كان يبغضها الأوروبيين والأقدام السوداء في الجزائر وتُمارس ضدها كذلك العنصرية والإحتقار نظرا لخبثهم ونتاجتهم كما يرى هتلر في كتابه "كفاحي" لكن في الأخير لما يتعلق الأمر بالإنسان الجزائري والأهلي فإنه يجمعهم كما يرى "فرحات عباس" التضامن الإستعماري، وتوحدتهم العنصرية ضد العرب والتي تعد حسب تعبير فرحات عباس الرابطة القوية التي تجمع تلك الطبقات فتجعل منها بناء مرصوفا.

ومما زاد من هذه البنية والثقافة العنصرية قوة هو تزامنها تقريبا مع النهضة التي طرأت على الصناعات الثقافية الحديثة، وبخاصة ما تعلق بصناعة الكتاب وانتشار الجرائد التي ساهمت بقدر كبير في بناء رأي عام إحتلالي (الطبي، 220، 2009)؛ مثل الصحف اليومية الصادرة في الجزائر التي يملكها أصحاب الملايير فجرائد "ليكو دالجيري"، و"لاديبش أليجيري"، و"ليكو دوران" و"لاديبش دوليست" التي تغتنم جميع الفرص لتؤثر العلاقة بين المستعمر والمستعمَر، حيث تجعل من العنصرية صناعة تصبغ عليها الأرباح وتُدر عليها الأنعام (فرحات، 117، 2009)، في ظل إنعدام الأخلاق في زمن اللاتكسية والرأسمالية المتوحشة ذات الخلفية الإقطاعية.

والتمييز العنصري لا يقتصر على الظواهر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية فحسب، بل يتعداها إلى الأمور الطبيعية والبيولوجية، لتصل درجة تُصنّف فيها الخضر والفواكه بدورها إلى صنفين فرنسية وعربية (سماتي، 189، 2007)؛ وهنا كلمة "سلع فرنسية" و"سلع عربية" ليست أسماء بقدر ما هي نعوت لها خلفية إحتقارية ممزوجة بالعنصرية وهذا ما تطرقنا إليه سابقا في ما يخص اللامات الإحتقارية المستخدمة لدى الأقلية الأوروبية فلما نقول فرنسية بحسب تعبيرهم هي شيء وسيم، وجيد، لبق، مؤدب ومتحضر،... وغيرها، ولما نقول عربية مثل فاكهة عربية أي ألها فاكهة فاسدة وغير ممتازة وليست بها جودة، ويقال حي عربي، أي حي وسخ نتن فيه رائحة كريهة وأمراض معدية، والعكس صحيح فحي أروبي أي حي راقى نقى به رائحة زكية وحضارة راقية ومعاملة راقية وسلوكيات متمدنة وهكذا.

أما فيما يتعلق بالثقافة فالعنصرية فيها بلغت أوجها خصوصا فيما تعلق بالتعليم حيث أن هناك مدرستين متميزتين بفعل فاعل المدرسة الفرنسية والمدرسة الأهلية، ولكل منهما شهادة خاصة ومختلفة عن الأخرى، شهادة فرنسية وشهادة أهلية (سماتي، 189، 2007).

وهنا تظهر العنصرية المكننة النابعة من رحم السياسة التعليمية الفرنسية المبنية على التجهيل وكذا المقولة الشائعة التي تقول: "أن الإنسان الجزائري كائن حيواني دون البشر لا يمكنه أن يتعلم أو يرتقي ويتطور"، لدرجة أن المستوطنون كانوا يعارضون إنشاء مدارس للأهالي، وهذا ما كانت تشهده المدرسة النورمالية ببوزريعة كمدرسة أهلية.

ثانيا: أهم الميكانيزمات السوسولوجية المستخدمة من طرف المستوطنين لتكريس السيطرة والمهانة واللاعتراف وممارسة اللامرئية (*l'invisible*) اتجاه الإنسان الجزائري.

استخدم الأوروبيون المحتلون للجزائر ميكانيزمات سوسيونفسية وأنثروبولوجية خبيثة في تكريس السيطرة والمهانة والإذلال والإزدراء واللاعتراف والإنكار والإقصاء في حق الإنسان الجزائري، مستهدفين في ذلك الحيلولة بين الإنسان الجزائري وذاته حتى لا يقدر نفسه ولا يثق فيها ويبقى يشعر بالدونية والصغر مقابل إعلاء شأن المحتل الأوروبي، مؤثرين في ذلك على كيانه وهويته التي يصعب من خلالها ترميمها وجمع أشلائها وشضايا كينونته الممزقة، ويصبح بعدها إنسانا طيعا وعابدا لدى الإنسان الأوروبي، ومقتنعا بذلك، غير مبالي بكرامته المهذورة ولا أرضه المغتصبة ولا مستقبله المجهول؛ وقد كانت هاته الميكانيزمات نابعة من حقول معرفية وُجهت جهود مفكرها وأعلامها لخدمة الكولونيالية مثل علم النفس، علم الاجتماع،

والأنثروبولوجيا، ومن أهم هاته الميكانيزمات السوسيو نفسية والتي إتسمت بالإستراتيجية المتضمنة للمكر والخداع كما يفسرها يورغن هابرماس نذكر الآتي:

1-ميكانيزم التفرقة الفضائية (المكانية، المجالية): وهي مستوحاة من النظرية المجالية في ميدان السوسيولوجيا، والتي نجدها متأصلة في الذهنية الأوروبية، وفحواها مرتكز على كون أن الإنسان الأوروبي متحضر وذو حضارة راقية متفوقة ومتدين يسكن المدينة عكس الجزائري الذي يعيش في البوادي والجبال بصورة تقليدية وينتمي إلى حضارة بالية وتفكير بدائي، وهكذا تنم العنصرية والإحتقار في ضوء هذه النظرية أو الميكانيزم، فالأوروبي يسكن المدينة والأهلي في الأرياف والجزائري يسكن الأحياء الراقية المسماة بالأحياء الأوروبية والأهلي يسكن في أحياء الصفيح والأكواخ وتسمى بالأحياء العربية.

وهذا ما تؤكده تلك العبارات المتأتية من اللهجة الباتاواتية ومنها فيلاج نيفر، أو قرية زنجية أو قرية عربية، والتي يطلقها المستوطنون على الأرياف والقرى التي يسكنها الجزائريون، وحتى الأحياء في المدن التي يقطنها الجزائريون ومن هذه التسميات القصبة، دوار القري(سعدالله،68،1997)؛ وحتى السوق الذي يُعد رمز للعمل الوضيع الذي يقوم به الأهلي حيث يلتقي الأوروبي بالأهلي، وهذا ما يرد في قصص كاغايوس حيث يوجد في السوق مثلا: ماسحي الأحذية (الخدم)، باعة السفنج (العرب)، باعة الزيت (القبائل)، والموتشو، أما الشاوش (الذي يُدخل الزائر) فتجده في بعض المؤسسات(سعدالله،67،1997)؛ وهذه بعض اللامزات التي يستخدمها الأوروبيون وهي تعبير عن العنصرية المكانية ذات الخلفية الإحتقارية، وقد تقوت هذه الفكرة أو الآلية بآلية أخرى ستتناولها بعد حين وهي أن هناك فراغا موروثا لا يمكن مد الجسور عليه بين الجماعة العليا الكاملة البشرية، وبين الجماعة الدنيا الأقل من البشرية الكاملة.

2-ميكانيزم التفرقة الاجتماعية: وهي المستوحاة من النظريات السوسيولوجية وأفكار منظري التنضيد الاجتماعي (la stratification social)، حيث أن الأوروبي مثلا يعمل فقط المهن العقلية وذات الجهد البسيط أما الأهلي العربي الخشن فيعمل في مجال المهن اليدوية والتي تتطلب جهد عضلي كبير.

وهذا ما تؤكده قصص زوج سوردي فوجد الاستعمال اللغوي أقوى دليل على ذلك حيث المسلم الموظف كان يُدعى كابورال أو كابو، أما الموظف الأوروبي فكان المدير يدعى وينادي باسم سيرجان وشيف والمعلم الأوروبي ينادي بوس(سعدالله،192،1997).

فهذه إحدى قصص كاغايوس (طلاق كاغايوس) حيث لما ذهب كاغايوس بعد طلاق زوجته لزيارة ابنه الذي كان عند مربية عربية وقد وجدها تنادي الطفل باسم يوسف (وليس جوزيف)، فقال له صديق كان يرافقه : "إحذر، فإنك لا تضمن أن يعمدوه على الطريقة العربية، فإذا تعرب فرما يُفضل أن يصبح ماسح أحذية"(سعدالله، 1997، 71)؛ وكأنما الإنسان الجزائري خُلِق ليكون في الطبقة الدنيا من المجتمع وليقوم بالمهن البسيطة، غير قادر وغير مؤهل للمهن العقلية، وهذا يعد مختصر التفرقة الاجتماعية التي حسب تعبير ألبير ميمي مغروسة في ذهنية الإنسان الأوروبي ومعززة بالتربية.

3-ميكانيزم إقصاء الجماعة التي ليس لها وظيفة (التهميش وتبريره): المستوحاة من النظرية الوظيفية، فهذا "أغشت بيرك" يفسر تحول فرنسا عن أصدقائها القدامى ببعض الضرورات الاجتماعية، ليعمل إهمال وتهميش شريحة مهمة من المجتمع وهي المتمثلة في الأهالي، فإذا كان علم الأحياء يعترف بقيمة القاعدة الشهيرة "الوظيفة تحدث العضو" مثلما جاء في بعض كتاباته، فليس من الخطأ القول بأن لكل حاجة اجتماعية تفرز الطبيعة مؤسسة مناسبة، كما أن العلم يسجل في دراسته للأجسام الحية "ضمور للأعضاء ناتج عن إنعدام المنفعة الفيزيولوجية"، فعلم الاجتماع في تحليله للمجتمع يلاحظ إقصاء الجماعات التي تفقد وظيفتها(سماتي، 190، 2007).

وهكذا يتم إقصاء الأهالي وتهميشهم بحكم أنهم لا وظيفة لهم ولا فائدة ترجى منهم، لأن الإنسان الأهلي مخلوق دون الصفة البشرية تقريبا وهذا ما نستجديه في تلك اللزمات مثل: (راتون غريب: rats ,raton الفئران، بوريكو: حمار) (سعدالله، 1997، 74)، ولهذا نجد المستوطنون في الجزائر يعارضون الإصلاحات الخاصة بالأهالي بكل إصرار كما يؤكد المؤرخ شارل أندري جوليان(قولدزيغر، 29، 2005).

وهذا ما تطرقنا إليه سالفا عندما تناولنا العنصرية في التعليم حيث هناك مدرسة فرنسية وأخرى أهلية ولكل منهما شهادة خاصة به حيث يسود الاعتقاد لدى المستوطنين "أن الإنسان الجزائري كائن حيواني دون البشري، متخلف لا يمكنه التعلم ولا الرقي ولا التطور" وهذا المفهوم حسبهم الجزائري كائن لا فائدة فيه إلا استخدامه وفقط في تلك الأعمال البسيطة والمتواضعة والمهينة التي يعملها الحيوان.

4-ميكانيزم التفوق الثقافي والحضاري: وتضم تلك الميكانيزمات المتأتية من أفكار ومنظري مركزية الثقافة الأوروبية وتفوق الحضارة الغربية، وهذا ما يؤكد عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم الذي لا يرى للحضارة سوى صورة واحدة

ويحصرها في المرجعية الغربية فقط ويدعو إلى تعميمها والأخذ بها كقوة دمج حضاري عظمى يجب أن تخضع لها كل الثقافات (الطبي، 2009، 214)؛ وتدخل هذه الأفكار في إطار شرعنة الإحتلال الإستعماري والإستيطان المتوحش الذي يُقبل عليه الساسة والعسكريين في الميدان ويبرره وينظر له المفكرون في إصداراتهم العلمية والفكرية، فإلى جانب دوركاهم نجد كذلك دوتوكفيل وآخرون...

وهذا ما جعل "ألبير ميمي" يلصق هذه الصفة بالإستعماري ويجعلها أحد مقوماته في قوله: "وهذا هو الإستعماري الذي يعتقد أنه يكمل مهمة يملئها عليه كونه حاملا لقيم الحضارة والتاريخ" (ميمي، 2007، 79)؛ وهنا علينا الرجوع إلى كتابات "أوليفيه لوكو غرانيزون" الذي تطرق إلى معالجة تحقير الذات العربية في كتابه الشهير "الإستعمار...الإبادة" عندما وضع تفرقة بين الزنجي والعربي في تصور الإستعمار، فإذا كان الزنجي قد ظهر في صورة إنسان متوحش غير قادر على التطور كما يقول أندري جيد، فإن العربي على خلاف ذلك فكان ينظر إليه نظرة مغايرة فهو "بربري يقف ضد الحضارة الغربية وهو إنسان مضر على الدوام" (حميد، 2012، 16).

ولهذا يصف عبد الغني مغربي المجتمع الكولونيالي في الجزائر الذي وُلدت فيه الأقلية الأروبية بأنه مجتمع مغلق يخضع لمنطق إقصاء وتشيين الإنسان الجزائري؛ والمستوطنون بحكم إنتمائهم لأمة فاتحة منتصرة ومسيطرة وممثلة لقيم الحضارة الغربية، فضلوا النظر إلى أنفسهم عبر الإنسان الأهلي المنبهر أمام إنجازاتهم، قصد إكتشاف عمق تيهه وإغترابه (Mgherbi, 1982, 11).

وهذا ما تؤكده تلك اللزمات والعبارات المتداولة بين الأقدام السوداء مثل البيكو التي تطرقنا إليها سابقا، العرب الحمقى، شرسون، متقهقرون نحو الصحراء، وبدو متعصبون للغاية، وبدائيون، والتي تعني أن الأهلي يستمد ثقافته من حضارة أدنى (سعدالله، 1997، 73)؛ وهذا ما جعل أبو القاسم سعد الله يسمي هذا الميكانيزم القائم على نظرية التفوق الحضاري العنصري بالإرهاب الثقافي (سعدالله، 1997، 21).

وهذا الميكانيزم القائم على التفوق الحضاري أتى بسلوكيات كولونيالية أخرى مشينة، حيث يعتبر هذا الميكانيزم الخور الجوهري التي تقوم عليه العديد من المظريات الأخرى، التي مازالت إلى يومنا هذا تُستخدم كإرهاب فكري لإحباط وإضعاف الآخر، وهذا ما أتت به إصدارات مثل: كتاب نهاية التاريخ لصاحبه فوكوياما، وصدام الحضارات لصامويل هنتغتون.

5- ميكانيزم إحياء الداروينية ونظرية تفوق العرق الأوروبي: وهي المستوحاة من نظرية التطور الاجتماعي والتي تقوم

على أن هناك أعراق أرقى من الأخرى وبعض هذه الأعراق قابلة للتطور وبعضها الآخر غير قابل للتطور، فالبنية الفكرية والذهنية الكولونيالية للمستوطنين دعمت هذا المنطلق من خلال مختلف الإصدارات الفكرية والأدبية التي أقرت تفوق العرق الأوروبي وسموه عكس العرق الجزائري الذي أُعْتَبِر دون البشري يقترب إلى الحيوان، وهذا ما جعل الأوروبيون يعمدون إلى التفرقة الاجتماعية والمكانية التي تطرقنا إليهما سابقا.

وهذا ما جعل R. Ricoux في جلسة 09 جويلية 1879 في المؤتمر العالمي للديمقراطية نادى بضرورة خلق عرق جديد من خلال ترقية العرق الجزائري عن طريق تشجيع الزواج المختلط الأوروبي وهنا يتجلى الإعتماد المبالغ فيه على نظرية داروين "حول العرق" (كاتب، 2011، 278)؛ والتي تظهر كذلك في تصريحات مؤسس النظام التربوي الإحتلالي "جيل فيري" أمام مجلس الشيوخ سنة 1885 عندما قال: "أنه يجب أن نقولها بصراحة لا غبار عليها، إن للأجناس السامية حق على الأجناس الدنيا... لأن عليها واجب تجاهها لأنها مسؤولة عن تمدنها" (Belamri, 1980, 94)؛ وهذا ما تؤكد كذلك ثقافتهم الشعبية المتمثلة في قصص كاغاياوس عندما يتكلم عن الأهلي "إن الإنسان الأهلي ينتمي إلى سلالة دنيا... ولا يمكن أن يرتقي بنفسه من خلال جهوده الخاصة ليكون في مستوى الأوروبي" (سعدالله، 1997، 94).

ولكن فضولنا المعرفي دفعنا للبحث عن جذور هذه النظرية و تطبيقاتها والتنظير لها على مستوى القادة العسكريين، والسياسيين... وغيرهم من مهندسي البناء الفكري الكولونيالي.

فوجدنا الإجابة في مرحلة الأمير عبد القادر وزمن الإنتصارات التي كان يحققها والتي أثارت مشاعر التقدير والإعجاب بالمجاهدين الجزائريين لدى الأهالي والمستوطنين على حد سواء، وحتى الجنود الفرنسيين والأوروبيين، وهنا أصّر كل من الكولونيل دي مونتانيك، والدوق دومال، والقبطان ريشارد على القضاء على هذه المشاعر (الأشرف، 1983، 286)؛ فلهجأوا إلى مختلف الحيل لتحقيق ذلك، فوجدوا عندها في نظريات العرق لداروين الحل الأنسب لذلك، فقاموا بإجراءات وأصدروا تعليمات وأوامر دقيقة، تهدف كلها إلى إثبات تفوق أحد الأجناس والحضارات على الأخرى، وهذا من أجل ترسيخ في مخيلة وذهنية الجزائريين النقص الخلقي والبيولوجي (الحتمية البيولوجية)، وهنا نستذكر قصة "الفيل المروض" التي تقدم في محاضرات التنمية البشرية وخصوصا تلك المتعلقة "بالإعتقاد الذهني"، فهذا الفيل حسب الراوي تم وضعه في حديقة الحيوان وربطه

بسلسلة في مؤخرتها صخرة كبيرة فلو حظ أن هذا الفيل في البداية قام بعدة محاولات لتحرير نفسه ولكن مع مرور الوقت والسنوات توقف عن ذلك فتم عندها استبدال الصخرة الثقيلة بجذع خشبي بنفس حجم الصخرة لكنه خفيف جدا على الفيل، فلو حظ أن هذا الفيل لم يتفطن لخفة هذا الجذع لأنه مازال في إعتقاده أنها صخرة وبقي عندها الفيل مروضاً، وهكذا فقد كان الهدف من هذا الميكانيزم هو ترسيخ في إعتقاد الجزائريين أنهم جنس خلق متخلف ولا يمكنه الإرتقاء والتطور بينما الإنسان الأبيض الأوروبي خلق وسيم متطور مثقف ومتعلم ومتهذب... وبالتالي هنا إحكام السيطرة الفكرية على الجزائريين وترسيخ هاته المعتقدات.

6-ميكانيزم الوصم الاجتماعي: والذي يضم مختلف الميكانيزمات التي تقوم على أساس التسمية وإطلاق النعوت على الآخرين والتي تكون في الغالب دونية وتحقيرية ومهينة، هدفها إشعار الأخر بالدونية وإلصاق مختلف الأوصاف الدنيئة به، وهذا ما يطلق عليه مصطفى الأشرف بالنظرية النقيض (antithèse) حيث نجد في هذا الميكانيزم الإستخدام العكسي لأطروحة المفكر الاجتماعي "تنبوم" حول الوصم الاجتماعي، فهذا الميكانيزم يُعد المرحلة التطبيقية للميكانيزمات السابقة الخاصة بإحياء الدارونية وتفوق العرق الأوروبي، ونظرية التفوق الحضاري، وهذا من خلال مختلف العبارات والألفاظ التي كان يطلقها المستوطنون على الأهالي وهي كثيرة جداً إذا رُحنا نخصيها مما جعل الأستاذ أبو القاسم سعد الله يصرح بأنه تستحق هذه العبارات على كثرتها تخصيص لها معجم.

ومن هذه العبارات التي ورت في قصص كاغايس الرخيصة نذكر لازمة بوريكو-أي حمار- ولازمة "الصراك" أي السارق التي جاءت منها كلمة Serraquage، وهذا ما ورد في إحدى قصص كاغايس عندما قال "أن الحياة سهلة جداً بالنسبة إليه وأنه لا يزجج نفسه بالسرقة، ومع ذلك كان أكثر الناس إمتعاضاً من فعل ذلك، لأنه إذا فعل قد يعني أنه يشبه العرب... تلك السلالة المكروهة" (سعد الله، 77، 1997).

وقصة أخرى جاءت في مجلة بابالويت جرت في قصر الحكومة بمدينة الجزائر بين رجل مهذب حسن الهندام وحمال أهلي:

- الرجل المهذب: أنظر إلى هنا، إبحث عن عرييين غير لصين يمكنني أن أثق فيهما، لحمل صندوقين من الملابس للغسيل إلى منزلي.

– الرجل الأهلي: ياسيدي هذين العربيين لا وجود لهما(سعدالله،76،1997).

بالإضافة إلى لازمة النيقرو وتعني الأسود، ولازمة فاطمة أو الفاطمات والتي تعني الخادمة تارة وتارة أخرى العاهرات، المزاي، الشاوش، البوريكو، تيرس... وغيرها.

وكل هذه العبارات والألفاظ تهدف لتعزيز فكرة أن الأهلي بالإضافة إلى أنه منحط عرقيا، فهو كذلك يحمل كل الصفات البذيئة والسيئة من سرقة، غش، خداع،... وغيرها(كاتب،290،2011)، وبالتالي إتمام مهمة الدوق دومال، الكولونيل دي مونتانيال والقبطان ريشار، كما أن هذا الميكانيزم يسعى به المستوطنون لنزع التهمة والأخلاق الدنيئة والسلوكيات اللاإنسانية والإجرامية وإلقائها عن الآخر كإجراء شرعنة العنف والجريمة والإبادة والتعذيب المرتكب ضداً لأهالي وهذا ما يؤكد لما تطرقنا سابقا لـ: دفيد ماتزا David Matza الذي يرى أن هذه القصص وما تحمله من أفكار والفاظ ونعوت مشينة عن الآخر هدفها تبرئة ذمة المستوطنين وإنكار المسؤولية وإلقائها على الآخر الأهلي.

7-ميكانيزم التضامن الإستعماري: يعد عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم من أهم من عالج موضوع التضامن الاجتماعي حيث ميّز بين التضامن الآلي والتضامن العضوي:

فيسود الأول في المجتمعات البدائية أو التقليدية التي تتميز بتضامن قوي يكون الأفراد مترابطين فيما بينهم مشكلين تجانس في الأفكار والمعتقدات، كما تتصف هذه المجتمعات بعدد قليل من السكان، يكون التخصص في العمل بسيط نظرا للتشابه الكبير في الحاجات والرغبات والنشاطات، ويغلب على أفرادها عواطف ومشاعر مشتركة وروح جمعية قوية، والمكانة الاجتماعية فيها تكون وراثية، في حين يسود التضامن العضوي في المجتمعات الحديثة التي تتميز بتقسيم للعمل ويكون أعضاء المجتمع فيه مصدر تباين وإختلاف في العادات والمعتقدات والآراء والسلوكيات ويزداد تخصص العمل وتنتج المكانة الاجتماعية فيها عن الكفاءة والمهارة والخبرة الفردية...(معتوق، الرتيمي،234،2088).

ولكن يشير فرحات عباس إلى نمط آخر من التضامن الاجتماعي وهو "التضامن الإستعماري" ويؤكد على أنها ليست كلمة جوفاء، فمجتمع المستوطنين في الجزائر متكون من أعراق مختلفة متباينة الأجناس والجنسيات فالفرنسيون، والإيطاليون، والإسبانيون وحتى اليهود... وغيرهم الذين كانوا يكوّنون هذا المجتمع يتكاهون وتباغضون ويتنافسون بحقد ولكن يجمعهم

التضامن الإستعماري القائم على العنصرية وكره العربي وإحتقار الإنسان الأهلي والدفاع على النظام الإستعماري وتفوق العرق الأبيض والتفوق الحضاري (فرحات، 117، 2009)؛ فالأوروبي الذي يهجر بلاده ويستوطن في الجزائر يجد بسرعة عمل يفضل التضامن الذي يلقاه من المستوطنين وبأجور مرتفعة أما البطالة فهي مصير العربي فقط (فرحات، 116، 2009)؛ وبفضل التضامن الإستعماري تكونت كتلة متجانسة متأزرة متراسة البنيان تفترق على كل المسائل ولكنها تلتقي وتجتمع وتتضامن للسيطرة على الإنسان الأهلي بكل وسائل العنف المادي والمعنوي.

فالتضامن الإستعماري كالذي كان سائد في المجتمع الكولونيالي في الجزائر بإعتباره نمط من أنماط التضامن الاجتماعي، تأخذ صفات ومميزات عدة من كلتا نمطي التضامن الاجتماعي التي تحدث عنها دوركايم وهما الآلي والعضوي، فنجد هذا النمط كذلك يجمع بين تناقضات وإختلافات هذين النمطين بصورة تثير فضول الباحثين والمهتمين ببناء الذهنية الكولونيالية لدى الأقلية الأروبية بالجزائر، ويمكن إختصار التضامن الإستعماري في الخصائص التالية:

- نجد المكانة الاجتماعية فيه تنتج عن الكفاءة إذا كان ذلك يعني المستوطنين وفي صالحهم تصبح وراثية في صالح المستوطنين دائما إذا تعلق الأمر بعمل الأهلي، حيث نجدهم يحرصون أشد الحرص على عدم وصول الأهلي إلى مستوى الإنسان الأروبي، وهذا ما تفسره تلك الضغوطات التي كان يقوم بها المستوطنون على السلطات الفرنسية لعدم فتح المدارس للأهالي.

- كما نجد في هذا المجتمع تسود بين أفراد العواطف والمشاعر المختلفة نظرا لإنتمائاتهم الجغرافية المتعددة (سويسريون، ألمان، إسبان، إيطاليين، كورسيكيون، مالطيون،... وغيرهم) لكن تتحد وتتفق وتلتقي مشاعرهم وعواطفهم فيما يتعلق بعلاقتهم مع الإنسان الأهلي حيث تظهر عندها مخالب الحقد والكراهية والإحتقار والعنصرية للعربي والمسلم.

- كما تتنوع نشاطاتهم ويزداد تخصصهم تعقيدا بحسب متطلبات الإقتصاد الرأسمالي، ولكن تحتفي التخصصات وتلتقي نشاطاتهم إلى درجة تصبح تخصص واحد تحت مسمى واحد إذا ما قسمنا العمل إلى عمل سهل لا يتطلب جهد عضلي فقط المجهود العقلي، وعمل صعب يدوي كان أم حربي يتطلب جهد عضلي كبير، فإننا نجد المستوطنون لا يعملون إلا في القسم الأول من الوظائف في حين يعمل الجزائريون في المهن اليدوية والحرفية التي تتطلب جهد بدني كبير.

- وتسود الروح الفردية لدى المستوطنين في المنافسة التي تملك المؤسسات الاقتصادية وإغتصاب الأراضي الجزائرية وإستعباد الإنسان الأهلي كخماس في أرضه، وحقوقه وبساتينه المعتصبة، في حين تبرز الملكية العامة من خلال تصريحاتهم التي تدعم تملك فرنسا للجزائر والجزائريين وما تقوم به فقط هو إسترجاع أراضيها التي سلبت منها بعد سقوط الدولة الرومانية، ومفاد هذه التصريحات "أنه كما يفصل نهر السين بين الأراضي الفرنسية يفصل البحر الأبيض المتوسط بين فرنسا والجزائر".

- و تزداد الروابط بين المستوطنين هشاشة بسبب شيوع الفردانية المعززة من النظام الرأسمالي الممزوج بالإقطاعية، وكذا إحتلاف إنتماءاتهم الجغرافية كذلك، فيتكاهنون ويتباغضون كما يقول فرحات عباس فيما بينهم ولكن لما يتعلق الأمر بالأهلي فإنه تقوى وتبرز بينهم (أي المستوطنين) الروح الجمعية وتقوى الروابط الاجتماعية وتزداد متانة. بمقومات العنصرية وإحتقار الأهلي من جهة والإنتماء إلى العرق الأروبي المتفوق وإلى حضارة متفوقة وراقية وإلى أمة فاتحة.

- وهكذا يجمع التضامن الإستعماري بين متناقضات التضامن الآلي والعضوي لأجل إحكام السيطرة على الإنسان الأهلي وإغتصاب وطنه وتقوية الروح الجمعية لدى الأقلية الأروبية وهذا ما يتجلى من خلال تلك المظاهرات (1961) المناهضة لديغول والمتصرة لمقولة "الجزائر الفرنسية"، هذا على المستوى المحلي أما على المستوى الدولي فيظهر لنا التضامن الإستعماري من خلال ذلك الدعم والسند الذي قدمه كل من فرانكو، وسالازار، والصهيونية العالمية لمناصري الجزائر الفرنسية بدءا من المتمردين الذين قاموا بالإنقلاب ضد ديغول ونهاية بالتحالفات والدعم الذي لقيته منظمة الجيش السري (OAS) الإرهابية الذي وصل حد التحالف بينها وبين منظمة الأرغون الإسرائيلية الصهيونية.

والتضامن الإستعماري كمقاربة نظرية يمكن أن نفسر من خلاله الدعم الذي لقيته فرنسا عند إحتلالها للجزائر من كل من الدول الأروبية وحتى روسيا والولايات المتحدة الأمريكية، ويفسر لنا كذلك ذلك الدعم الذي لقيته فرنسا بعد إندلاع الثورة التحريرية من عديد الدول الإستعمارية وحتى من الـ NATO الذي يُعد رمز التضامن الإستعماري بقيادة الجنرال الأمريكي إيزنهاور وآخرين.

كما يمكن أن يفسر لنا ذلك التكالب على العراق قبل إحتلالهم سنة 2003، سوريا، السودان، وغيرها، وما يؤكد هذه المقارنة النظرية وتجذرها في الفكر الاجتماعي الإسلامي حيث نجد رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في تنبئه لما يوصف

بالتضامن الإستعماري في الحديث الذي ورد في سنن أبي داود في الجزء الرابع في كتاب الملاحم تحت باب "في تداعي الأمم على الإسلام":

«حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِرَاهِيمَ الدِّمَشْقِيُّ، ثنا بشر ابن بكر، ثنا ابن جابر، حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ السَّلَامِ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا" فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثُرَ، وَلَكِنْ كُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ" فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" (أبو داود، بدون تاريخ، 111).

8-صنع الغرابة: هي العملية التي بموجبها تصبح ممارسة ثقافية حضارية ما مثيرة ومدهشة في اختلافها عن منظور المستعمر العادي، ومن المفارقات أنه مع اضطلاع الأوروبيين بتعليم المحليين وأبناء الثقافات الأصلية، بدأ أطفال المدارس في الأغلب الأعم ينظرون إلى سبل عيشتهم المحلية ونباتاتهم وحيوانات بيتاتهم المحلية بصفته غريبة، مع اعتبار النظائر الأوروبية لهذه المفردات هي "الطبيعية" أو "العادية"؛ وهذا الميكانيزم خطير بحكم أنه يفسد على الإنسان الأصلي من خلال التعليم واستخدام الحجج والمبررات المؤدجة ذات القوة الإقناعية بوصلته وبصيرته في النظر إلى كينونته بصفة إحتقارية وإزدرائية، ويصبح يرى بعدها كل ما يعيشه، وكل ما يملكه، على أنه مرادف للجهل والتخلف والدونية، وهو ما يفقد الإنسان الأصلي ثقته في نفسه وتقديره لذاته وهويته، والأخطر من ذلك أنه يمس عناصر مهمة في تكوين هويته مثل اللغة الأصلية، وهذا ما يجعله يسهل عليه الدخول في حالة من الإعتراب النفسي والاجتماعي.

9-الإخلال (Abrogation): ويستخدم من منظورين من جهة رفض استخدام لغة المستعمر بطريقة صحيحة أو بالأسلوب المتفق عليه، حيث يعمل المستعمر إلى جعل المستعمر ينطق لغة المستعمر بطريقة بدائية مختلفة النطق تثير الإشتزاز بكثرة الأخطاء، وهذا ما يورده إيمانويل سيفان في دراسته حيث كان يطلق الجزائريون على الآخر المحترم مثلا كلمة Tu بدل كلمة Vous للمعاملة وهو ما جعل الأوروبيون المستوطنون يطلقون على الجزائريون اسم Tu بطريقة إحتقارية.

وهذا ما يشير إليه الباحث إيمانويل سيفان لما جاء في أطروحة لانلي A. LANLY عن فرنسيي شمال إفريقيا سنة

1962 في الفصل المعنون بـ 'اللقاء بين العربية والفرنسية الدارجة':

"هناك ميزة أخرى تتميز بها فرنسية شمال إفريقيا وهي استعمال الضمير أنت Tutoiement ، فهي تنسب جزئيا للمتحدثين بالعربية أنفسهم، مادام المرء لا يستعمل (أنتم) بالعربية، وأن أولئك المتكلمين بالعربية الذين بدأوا استعمال الفرنسية بدأوا بضمير (أنت) عندما يخاطبون الأوروبيين وكان رد هؤلاء بالمثل أيضا،..... وأن الأهالي الذين يعلمون أن اللغة الفرنسية تستعمل (أنتم) في علاقات المجاملة، أصبحوا يرفضون استعمال (أنت)، لأنه يرمز إلى تفوق المستعمرين، وطلبوا حذفها من الإدارة ومن الحياة الاجتماعية عموما" (سعدالله، 62، 1997).

ومن جهة أخرى يستخدم ميكانيزم الإخلال في اللغة الأم حيث يعتمد التضييق على تعليم اللغة الفصحى وتشجيع استخدام الدارجة والعامية في الحياة الاجتماعية والإدارات العمومية، لتصبح هي اللغة الأصلية، ولأن الدارجة ضعيفة المبنى والأصل يسهل إلصاق التخلف والدونية بها مما يؤدي إلى نفور أهلها عنها وبالتالي فقدان مرتكز ومرجع مهم في بناء الهوية الخالصة، وهذا يذكرنا بقرارات رواد الحملات الصليبية التي كانت تستهدف نشر الدارجة المصرية في كامل الوطن العربي بدل اللغة العربية الفصحى؛ وهذا ما يؤكد إيمانويل سيفان: "...فإن اللغة العربية كانت تعامل بكراهية بالغة، كقولهم عنها أنها لغة لا نفع فيها، وصعبة، وعنيفة، وعنيفة، ووحشية" (سعدالله، 74، 1997).

10- التفرقة على أساس العرق والدم والتبرير التاريخي المزيف: من المبادئ التي كان يقوم المستعمر الفرنسي بتطبيقها

في الجزائر هو محاولة التفرقة العرقية بين أفرادها، وهو اعتبار أن المجتمع الجزائري مكون من عنصرين أو عرقين مختلفين كل الاختلاف، وهما العنصر البربري الذي يمتد بجذورها حسب الزعم الاستعماري إلى العرق الآري الذي استوطن بلاد الغال في أوروبا و وَقَد منها إلى شمال إفريقيا، والعنصر العربي الذي يعتبرونه وافدا على البلاد في غزوات همجية ما انفكت تتلاحق بعد الفتح الإسلامي، واستوطنت البلاد لتنافس أهلها الأصليين لقمة العيش، إلى أن جاء الفرنسيون (أبناء عمومة البربر) ليخلصوهم من وطأة الاحتلال العربي (...!) ومن المؤكد أن هذه النزعة العنصرية ما تزال سائدة إلى الآن لدى بعض المثقفين المتأثرين بتلك الدراسات التي كانت تركز هذا المفهوم لدى الجزائريين، ولم يُدرَس المجتمع الجزائري قط (في مقابل) كوحدة متكاملة انصهرت أجزاؤها بفعل عوامل فيزيقية، واجتماعية، وثقافية، صيرتها مجتمعا واحدا ذا ثقافة متجانسة العناصر في ثوابتها العامة، بحيث لم يعد فيها للأصل العرقي أي أثر بعد امتزاج ثقافي واجتماعي ثم بنجاح باهر بفضل الإسلام الصادق للسكان منذ قرون عديدة وحتى الساعة (بوطقوقة، 2016).

خاتمة:

هذه ثلة من الميكانيزمات والآليات المتعددة والتي مازالت تستخدم إلى يومنا هذا لتحقيق العديد من الأهداف الغربية الخبيثة وخاصة السيطرة على المجتمعات وإستغلال خبراتها وإستعباد مواطنيها، وتنبُّع هذه الميكانيزمات من العقيدة الكولونيالية المبنية على العنصرية القائمة على ثلاث عناصر هامة حسب ألبير ميمي: 1-الكشف وتبيان الفوارق بين المستدمر والمستدمر، 2-تثمين هذه الفوارق لصالح المستدمر وعلى حساب المستدمر، 3-مد هذه الفوارق نحو المطلق لتأكيد كينونة نهائية لها والسعي لكي تصبح هكذا(ميمي، 75، 2007).

إن مقولة أبو القاسم سعد الله رحمه الله 'لم يكن الاستعمار عسكريا بحثا وإنما ثقافيا ومعرفيا'؛ جاءت مُعبرة وواصفة لآليات الهيمنة والتسلط الممارسة من قبل الإنسان الكولونيالي الأوروبي اتجاه الإنسان المستعمَر الجزائري، هاته الآليات التي تتصف بالمركر وتصيب في مقتل، وتنخر كيان المصاب ووجوده بإصرار رهيب، وهي مستمدة من العلوم الاجتماعية الاستعمارية، وهذا ما يكشفه جيرارد ليكر في كتابه 'الأنثروبولوجيا والاستعمار': "أن الأمبريالية الاستعمارية المعاصرة تتوافق زمنيا مع الأنثروبولوجيا الاستعمارية، فكلتاها تعودان إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، وتكمن خطورة هاته العلوم أنها تدرس المجتمعات من خلال البحث في فلكورها وتناقضاتها ونزعاتها الطائفية والقبلية وقضايا الثأر والتنازع والاختلاف، ثم تسخيرها لأطماع السلط السياسية لتدبير إشعال الحروب الأهلية والطائفية وبالتالي تُضعف المجتمعات المستهدفة.

وجاءت نظرية ما بعد الحداثة كحركة ثقافية مضادة ومقاومة ظهرت في مرحلة ما بعد الحداثة للوقوف في وجه التغريب، التهميش، التعالي، والهيمنة الغربية المغلوطة، ولم يقتصر كذلك منظروا النيوكولونيالية على مفكري العالم الثالث، فقد توسعت لتضم بشكل من الأشكال مفكرين من المنظومة الغربية الذين ثاروا على الثقافة البيضاء ومركزيتها، فإعتبروها ثقافة أسطورية حاملة وخيالية، مبنية على خطاب الإخضاع، الإستعلاء، والهيمنة، العنصرية، التمييز اللوني، العرقي، الديني، الطائفي والطبقي.

وبعد معرفة معاناة التابع بمهوم المفكرين الهنديين هومي بهاها وسيفاك غاياتري اللذين يثيران جدلية إستطاعة وقدرة التابع على التكلم من عدمه، متفقين على أهمية نزول النخبة من برجها العاجي والإنخراط في توعية التابع ومساعدته على إسماع صوته؛ وتعتبر هكذا دراسات كالتى بين أيدينا مساهمة في هذا المسعى في الرفع من الوعي بأزماتنا وورطتنا الحضارية التي تعود

في جزء منها إلى إرتدادات المرحلة الكولونيالية ومشاكل إعادة الإنتاج للسلوكيات الكولونيالية، وفي جزء آخر حسب علي شريعتي ومالك بن نبي إلى القابلية للإستعمار والقابلية للإستعمار.

الهوامش:

1- ألبير ميمي، 2007، صورة المستعمر، ترجمة ميشال سطوف، الجزائر، منشورات Anep.

*بعد شراء المغني الجزائري المعروف بمامي لمنزل الأستاذ والمجاهد والدبلوماسي وأحد الستة الذين تم قرصنة طائرهم من المغرب إلى الجزائر الأستاذ مصطفى الأشرف، كتب الأستاذ أمين زاوي كأنما "جزائر الأمة والمجتمع" تحولت بقدرة قادر إلى chérie pas de chichi، فممنزل الأشرف كان يحتوي على ثلاث مكتبات من أغنى المكتبات التي عرفتها البيوت الجزائرية في القرن التاسع عشر، الأولى مكتبة مصطفى الأشرف التي أسسها على مدى ثمانين عاما (1917-2007) وهو المعروف بعشقه للكتب، والثانية للرسام المعروف إيتيان ديني (1861-1929) والتي يكون قد حصل عليها الأشرف أو جزء منها، والثالثة للإستاذ والمؤرخ الكبير محمد شريف ساحلي صاحب كتاب "تحرير التاريخ" (أنظر أمين الزاوي، 2012/02/16، بين مصطفى الأشرف والشاب مامي، العدد 3878، جريدة الشروق).

2- جون سكوت، 2009، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، ترجمة محمد عثمان، ط1، لبنان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

3- سعد الله أبو القاسم، 1997، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

** لاكاغايوس (la cagayous): هو مخلوق أدبي خيالي أبدعه أغست روينيه (1862-1930) الذي كان يكتب بإسم مستعار هو موزيت Musette إشتغل بالحمامات بمدينة الجزائر، وصحفيًا، ومفتش للمساعدات الاجتماعية، حيث كان يعتمد في كتابته على معلوماته عن الطبقات الدنيا للأقلية الأوروبية في الجزائر؛ وهذا البطل الروائي الأسطوري مولود بحبي باب الواد من أب فرنسي وأم إسبانية وذو مزاج شعبي، وكثير التنقل في حياته، وكانت الإصدارات الأسبوعية التي تصف مغامرات كاغايوس سرعان ما يختطفها الناس من الأكشاك، وبعض هذه الأعداد أعيد طبعها حوالي خمس مرات مثل عدد زواج كاغايوس مرتين في 1924، وثلاث مرات سنة 1944،

ووصل ولع المستوطنين بهذا البطل الأسطوري درجة أنه أصبح علامة مسجلة طُبعت على أنواع من السجائر والأثاث والملابس خصوصا الضيقة الوسط (هو نوع اللباس الذي يلبسه البطل حسب وصف الروائي).

4- سيفان إيمانويل، (1991/04/07)، **الإستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر**، ترجمة أبي القاسم سعد الله، العدد 129، الجزائر، جريدة السلام، ص06؛ نقلا عن: دحمان تواتي، 2008، منظمة الجيش السري، الجزائر، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع.

5- الطيبي محمد، 2009، **الجزائر عشية الغزو الإحتلالي**، ط1، الجزائر، ابن النديم للنشر والتوزيع.

6- فرحات عباس، 2009، **ليل الإستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال، الجزائر، وزارة الثقافة.

7- سماتي محفوظ، 2007، **الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها**، ترجمة محمد الصغير بناني، عبد العزيز بوشعيب، الجزائر، منشورات دحلب.

8- أي راي قولدزيغر، 2005، **جذور حرب الجزائر**، ترجمة ورد لبنان، الجزائر، دار القصبة.

9- حميد عبد القادر، (2012/12/16)، **التأسيس الفعلي للذات العربية**، www.elkhaber.com ،

10- Megherbi Abdelghani, 1982, **les algériens au mémoire du cinéma**

، نقلا عن: تواتي دحمان ، 2008، **منظمة الجيش السري**، الجزائر؛ مؤسسة SNED colonial, Alger, كوشكار للنشر والتوزيع.

11- كمال كاتب، 2011، **أروبيون يهود وأهالي بالجزائر 1830-1962**، ترجمة رمضان زبدي، الجزائر، دار المعرفة.

12- مصطفى الأشرف، 1983، **الجزائر الأمة والمجتمع**، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

13- جمال معتوق، الفضيل رتيمي، 2008، **المبسط في علم الاجتماع**، ط1، الجزائر، دار بن مرابط.

14- أي داود، سنن أي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الرابع، كتاب الملاحم، لبنان، المكتبة العصرية.

15- مبروك بوطقوقة، (2016/04/16)، **عرض كتاب نفسية الشعب الجزائري**،

www.arannthropos.com